﴿وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ٨٢﴾ [الحجر: 82]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تنوّع نعم الله الظّاهرة والباطنةِ، على قوم صالحٍ عليه السلام

لمّا ذكر الله تعالى نعمَه بإيتاء أصحاب الحجر الآيات العظيمة أعقبها بذكر نعمةٍ اختصّوا بها لتظهر آثار نعمه عليهم الباطنة والظّاهرة.

وأيضًا: لمّا كانت الآيات تنبيهًا لقريشٍ من أن ينالَهم مثلُ ما أصاب القوم المكذبين، أخبر أنَّ أصحاب الحجر، الذين كانوا في طريق سفر قريشٍ، كانوا مثلهم في الأمن منَ العذاب والغفلة عمّا يُراد بهم مع أنَّهم كانوا أشدَّ منهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَنۡحِتُونَ﴾: أصلُ (نحت): كَلِمَةٌ تَدُلُّ على نَحْرِ شَيءٍ وتَسْوِيَتِه بحَديدَةٍ[2]، النَّحت: الأَخْذُ مِنَ الشَّيءِ لتجعله على صورةٍ مخصوصَةٍ، كنحت النَّحيتِ والصَّنمِ والبَيتِ من خَشَبٍ وحَجَرٍ ونحوهما، ويكونُ في الأجسام الصَّلبة المحتملة لذلك، وقد يتجوَّز به في غيرها[3]، ونَحَتَ الجبلَ يَنْحِتُه: قَطَعَه[4]، والنُّحاتَةُ: ما يسقط منَ المَنْحوتِ، والنَّحيتَة: الطّبيعة التي نُحِتَ عليها الإنسان، كما أنّ الغريزة ما غُرِزَ عليها الإنسانُ[5]، والمقصود بالنَّحْتِ في الآية: بَرْيُ الحَجَرِ مِنْ وسَطِهِ أو مِنْ جَوانِبِه.

المَعنى الإجماليُّ:

اتّخاذ قوم صالح بيوتًا حصينة أمينة، منحوتة في صُلب الجبال

ثم بيَّن الحقُّ تعالى بعض مظاهر حضارتهم وتحصنهم في

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/81.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نحت).
(3) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نحت).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (نحت).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (نحت).

بيوتهم المنحوتة في الجبال، فقال: ومكنّاهم في الأرض وجعلناهم أولي قوَّة ومنَعَة، وحضارة ومهارة، وحذْقٍ بفنون البناء والعمارة، حتَّى كانوا يتخذون من جبالها بيوتًا حصينة، حيث كانوا يقطعون حجارتها وينحتونها تسوية لها، ثمَّ يبنون بها قصورهم ليعيشوا فيها آمنين عليها من الهدم، وعلى أنفسهم من العدوان والسّوء؛ لقوة بنائها وبديع إحكامها؛ أو آمنين منَ العذاب لحسبانهم أنَّ الحصون التي بنوها تحميهم منه[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الوصل بالواو في الآية الكريمة:

إعـراضُ قـوم صـالـحٍ عـن آيـات الـلـه، وانـشـغـالـهـم بنحتِ بيوتِهم من الجبال

لمّا ذكر اللّهُ تعالى نعمتَه على أصحاب الحجر، أنْ آتاهم الآياتِ ناسب ذكر نعمةٍ أخرى عظيمة لم تكن لغيرِهم منَ الأقوام السّابقين، ولمّا كانت الجملتان فعليَّتين ناسبَ مجيء الآية على طريق الوصل بالواو؛ لتكون من عطف جملةٍ فعليَّةٍ على جملةٍ فعليَّة، وفي الوصل بالواو تعجيب من حالِ أصحاب الأيكة؛ إذ كانوا عن آياتِ اللّه معرضين غيرَ متأمّلين لها ولا متفكّرين فيها، لكنَّهم عندَ نحتِ البيوت منَ الجبال كانوا صابرين متأمّلين متفكّرين لِما يحتاجه النّحت من مهارة عالية وذوقٍ رفيعٍ في العمل، فهذه الجملة وقعت موقعَ المقابلة التّعجّبيَّة؛ إذ أعرضوا عنِ التَّأمّل في آيات اللّه الّتي فيها نفعُهم وتأمّلوا في نحتِ بيوتِهم منَ الجبال التي ما أغنت عنهم شيئًا.

سرُّ التّعبير بتركيب ﴿وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ﴾:

نحتُ قوم صالحٍ للبيوت من الجبالِ، صنعة تـوارثـوهـا عـن آبائهم

أفاد التّعبير بصيغة (كان يفعل) في قولِه ﴿وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ﴾ إلى أنَّهم كانوا مستمرّين على هذا العمل مداومين عليه، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ نحتَ البيوتِ من الجبالِ كان صنعةً لهم يتوارثونَها فيما بينهم.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/104، والسّعديّ تيسير الكريم الرحمن، ص: 434، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 5/572.

سرُّ ﴿مِنَ﴾ في قوله ﴿مِنَ ٱلۡجِبَالِ﴾:

نحت الجبال بيوتًا، دليل على القوّة والبأس الشّديد

لمّا كانت ﴿مِنَ﴾ ابتدائيَّة، أفاد التّعبير أنَّ نحتَهم كان مبتدئًا من الجبال، بمعنى أنَّهم ابتدؤوا نحتهم من صخرِ الجبالِ، فخرقوه ودخلوه واتَّخذوه بيوتًا، ففيه إشعارٌ بقوَّتِهم، ويؤيّده قولُه تعالى: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ٩﴾ [الفجر: 9]، ويحتمل أن تكون ﴿مِنَ﴾ تبعيضيَّة، ليكون المعنى وكانوا ينحتون من بعضِ الجبال بيوتًا[1]، والوجه الأول هو الظّاهر، والمعيّن لكون الجبال بعضَها هو (أل) العهديَّة في ﴿ٱلۡجِبَالِ﴾ كما سيأتي.

فائدة تقديم ﴿مِنَ ٱلۡجِبَالِ﴾ على ﴿بُيُوتًا﴾:

تعظيمُ نعمِ الله بتيسير الصّعابِ وتسهيلها

قُدِّمَ الجار والمجرور على المفعول به لإفادة التّعجيب من حالهم، والتذكير بنعمة ربِّهم عليهم؛ إذ إنّ قوله ﴿مِنَ ٱلۡجِبَالِ﴾ في الأصل صفة لقوله: ﴿بُيُوتًا﴾، فلمّا تقدَّم عليها صار حالًا، كما أفاد التّخصيص بمعنى أنَّ سكناهم لم يكن إلّا في الجبال خاصّةً، وأنَّهم ما كانوا ينحتون بيوتًا إلّا منَ الجبال؛ للإشعار بقوّتهم وبعظيم نعمة اللّه عليهم في أنْ يسّر لهم هذا الأمر.

فائدة (أل) في قولِه ﴿ٱلۡجِبَالِ﴾:

الجبال دالة على عظمة من نصبها أوتادا، وتذليلها بأمر الّذي سخّرها

(أل) هنا عهديَّة، بمعنى الجبال التي كانت في موضعِ سكناهم ومعيشتِهم، فيكون المرادُ من الجبال بعضَها.

نكتة قوله: ﴿يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ﴾:

قومُ صالحٍ كانوا على علمٍ بالهندسةِ والتّخطيط العمرانيّ

جُعِلَ متعلَّقُ النَّحتِ البيوت التي منَ الجبال؛ لأنَّ الأصلَ في النَّحتِ أنْ يتعلق بحجارةِ الجبال لا بغيرِها[2]، وأفادَ التّعبير بـ﴿يَنۡحِتُونَ﴾ معنى اقتطاعِ الحجرِ منَ الجبالِ ونجرِه وتسويتِه بدِقَّةٍ؛ إظهارًا للمنَّةِ عليهم بالقوَّة والتّمكينِ وإشعارًا بما أوتوا منَ العلمِ بالهندسةِ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/73.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/220.

دلالة التّنكير في قوله ﴿بُيُوتًا﴾:

أفاد التّنكير هنا تعظيمَ البيوتِ التي اتّخذوها للسُّكنى في الجبالِ وتفخيمَها.

لا ريب أنّ البيوت المنحوتة في الجبال هي قصور فخمة

بلاغة الكناية في سياق الآية:

قوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾، أفادَ التّعبيرُ بهذه الجملة على طريقِ الكنايةِ بذكرِ ملزوم المعنى وإرادةِ لازمه أنَّهم كانوا مترفِّهين بنعمِ اللّه عليهم وأنَّهم كانوا أولي قوَّةٍ وبأسٍ شديدٍ وأنّ أعمارَهم كانت طويلة؛ لما يفيدُه نحتُ البيوت منَ الجبال بطول بقاء البيوت ومكثِهم فيها، ويشعر التّعبير كذلك بِحذاقتِهم في النّحتِ التي لم تنفعْهم في دفعِ العذابِ[1].

عبقريّة القوم في النّحتِ، لم تدفع عنهم العذابِ

دلالة الحال في قوله ﴿ءَامِنِينَ﴾:

لمّا كان الحال قيدًا لعاملِه وبيانًا لهيئة صاحِبه وكان ﴿ءَامِنِينَ﴾، حالًا من الضّمير في ﴿يَنۡحِتُونَ﴾ دلَّ على أنَّ الحالَ مقارنةٌ، بمعنى أنَّهم كانوا آمنين في حالِ نحتِهم البيوت، ولمّا كان تركيب ﴿وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ﴾، يفيد استمرار نحتِهم ومداومتِهم عليه، كما تقدَّم دلَّ على دوام أمنِهم باستمرار عملِهم ومعاشِهم، وتحتمل الحال أن تكون مقدّرةً، أي كانوا مُقَدِّرينَ أَنْ يَكونوا آمِنينَ في سكنى البيوتِ بعد الانتهاء من نَحْتِها، وكانَتْ لَهُم بِمَنْزِلَةِ الحُصونِ، لا يَنالُهُم فيها العَدوُّ[2].

دلالة الحال بين المقارنة والمقدَّرة

دلالة حذف متعلّق اسم الفاعل ﴿ءَامِنِينَ﴾:

حذف متعلَّق اسم الفاعل ﴿ءَامِنِينَ﴾ لإفادة أنَّ الأمن صار حالةً لازمةً لهم، فلا يفارقُهم الأمنُ، ويحتمل أن يكون الحذف لإفادة العموم بمعنى آمنين من أن تتهدَّم عليهم البيوت لوثاقتِها واستحكامِها، ومن نقبِ اللّصوص لها، ومن الأعداء وحوادث

الأمنُ من حوادثِ الدّهرِ، لا يمنع عذابَ المكذّبين الضّالين

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/519، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/306.
(2) الشّهاب، عناية القاضي: 5/537، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/74.

الدهر، ولمّا كانت بيوتُهم من الجبال اعتقدوا أنَّهم آمنين من نزولِ عذاب اللّه عليهم كما نزل على الأقوام المكذّبين السابقين، لتوهُّمهم أنّ الجبال تحميهم منه، وذهب المفسّرون إلى تقدير محذوف معيَّنٍ لمتعلّق الاسم، والظّاهر هو العموم؛ إذ لا مقتضى عنه[1].

توجيه المتشابه:

من بلاغة القرآن
مناسبةُ كلِّ لفظٍ لسياقِه وسباقِه

جاء في هذهِ السّورةِ قوله: ﴿وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا﴾ وفي الشُّعراء قال: ﴿وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ١٤٩﴾ [الشعراء: 149]، وفي سورةِ الأعراف قال ﴿وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتًاۖ﴾ [الأعراف: 74]، بحذفِ (مِنْ) وفيه مناسبةٌ حسنةٌ، وذلك لأنَّ في الأعرافِ قال ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتًاۖ﴾ [الأعراف: 74] فتَقدَّمه قولُه: ﴿مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ [الأعراف: 74]، فاكْتَفى بذكر ﴿مِن﴾ [الأعراف: 74] مع السّهول عن ذكرِها مع الجبال[2]، وأيضًا الذي في سورةِ الأعرافِ جاءَ في سياقِ ذكرِ نِعَمِ اللّهِ الكثيرةِ على قومِ صالحٍ، فناسبَ ذكرَ الجبالِ بصيغةِ العمومِ من غيرِ تبعيضٍ لها؛ للمبالغةِ المناسبةِ لكثرةِ الإنعامِ، والذي في سورةِ الحجرِ والشعراء جاءَ في سياقِ ذكرِ تكذيبِهم لنبيِّهم صالحٍ عليه السلام، وليسَ في سياقِ ذكرِ النِّعَمِ، إذْ قالَ في بدايةِ القصَّةِ في سورةِ الحجرِ ﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ وقال في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٤١﴾ [الشّعراء: 141].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/127، والزمخشري، الكشاف: 2/587، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/372، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/216، والشّهاب، عناية القاضي: 5/537.

(2) الكرماني، أسرار التكرار في القرآن، ص: 124.